المحاضرة التاسعة:

المصادفة في الدراسات التاريخية

المصادفة مبدأ تخضع له بعض الحوادث، وهي تلك التي تحدث دون سابق توقع ويطلق عليها حوادث المصادفة، وهذه الحوادث تنفلت من قبضة المنهج العلمي، و المصادفة بمعناها الفلسفي نوع من الحوادث المتأتية من اجتماع ظواهر تنتمي إلى مجموعات لا تخضع إلى نظام العلية.

لذا يقتضي بذلك على فكرة المصادفة التاريخية، لكن فلسفة نيتشه ثارت ضد الطرح رافضة كل محاولة لعقلنة التاريخ، يقول في ذلك: **" لأن التاريخ أكثر مأساوية وأقل اطمئنانا، باختصار فهناك اللاعقل، هناك فلاسفة ركزوا على العوامل العقلانية وأعطوها ثقتهم وهناك فلسفة ركزوا على العوامل اللاعقلية ودورها في تدبدب الحركة التاريخية وتغيير مسارها".** وما يؤكد تدخل المصادفة في الحركة التاريخية ماحدث في الحرب العالمية الثانية فمن كان يعتقد بهزيمة هتلر، لكن تدخل العامل البيئي الذي لم يكن في الحسبان.

وهكذا، يتضح انفلات الحادثة التاريخية من كل مصادرات المنهج و المتمثلة في أن الفلسفات التي تدافع عن العقلانية الكانطية والهيجلية في تفسير حركة التاريخ تعبر عن حب البعض لأخلاقيات الكانطية لكن يبدو أن فلسفة نيتشه أقوى واقعيا من عقلانية كانط. فالتاريخ لا يسيره العقل فقط، وإنما تتدخل في تسييره قوى لا عقلانية جامحة تربص في أحشائه، وهذا يدفعنا إلى القول بأن كل واقعة من وقائع التاريخ قائمة في ذاتها، ولا يمكن تصور ظروف متشابهة يتكرر فيها الحدث التاريخي.

أن العقل في الدراسات التاريخية الإنسانية خاضع لملابسات الأنانية والمصالح والشهوات السلطوية، وهكذا تحول المنهج في التاريخ إلى مجرد نظريات يتبناها المفكرون ويعجز عم ممارسة المؤرخون وهذا ما نستشفه في اعتراف المؤرخ الألماني ليبولد رانكي، أين يقول: **" ...أن أهم شيء هو دائما الموضوع الذي نتناوله وهو الإنسانية كما هي ممثلة في حياة الأفراد والأجيال والأمم، وفي بعض الأحيان ممثلة في قدرة الله التي هي فوق الجميع".**

إن التاريخ في واقع الحال لا يصل إلى قوانين رمزية ثابتة، وأنما يصل إلى قوانين سببية متغيرة في الزمان والمكان، فالحقيقة التاريخية لا تلبث على حال، ولعل اعتذار هذا المؤرخ الألماني يشير إلى قضية هامة وهي تدخل الإرادة الإلهية في تحريك الأحداث التاريخية. و الإرادة الإلهية تتجاوز المعايير المنطقية والعقلية فهي قادرة على الجمع بين النقيضين وتجاوز